«أيامنا»..
قليل من الأشياء الجميلة وُجدت لتبقى
(١)

كل الأشياء قابلة للنسيان، حتى الأشياء الجميلة، فقط قليل منها جدًا وُجد ليبقى، أؤمن بهذه الحكمة، ولكنني لأ أجد مبررًا لكونها شعار أهم زجاجة «بيرة» في مصر، على زجاجة «ستيلا» لُصقت العبارة لسببين لا ثالث لهما، إما أنها دعوة للتفكير والتأمل، وبالتالي «الفصلان»، أو دفعك لتخيّل الكون جميلًا، فتستمر في طلب المزيد، أغلب الظن أن السبب الثاني هو الأقرب للحقيقة، ولكنني لا أحب «ستيلا» وأخواتها، وهذا سبب أدعى لوجود أشياء جميلة حقيقية في هذه الحياة، بلا مبرر أو ذاكرة تدفعها للبقاء دائمًا، الأشياء الجميلة حقًا ستبقى حتى لو رحل أصحابها، كل ما تحتاجه ألبوم صور صغير تركب معه آلة الزمن وتنطلق!

منذ عشر سنوات تقريبًا لا يوجد في حياتي ألبومات، استبدلت بها ذاكرة الهواتف الذكية، الموبايل في هذا العصر تحول إلى ألبوم وأرشيف ونوتة تليفونات ومفكرة، في لحظة يتحطم هاتفك أو تصطاده يد سارق، فتفقد كل الذكريات التي ائتمنت عليها شريحة إلكترونية مقاسها ٢ ملم!

أحتفظ بصوري الحديثة وذكرياتي على أجهزة الكمبيوتر،

منذ أن تحطم أحد هواتفي، وقتها لم أتمكّن من العثور على أرقام أصدقائي ومعارفي، لحظة تشعر فيها بوحدة إجبارية، وكأنك مسجون في فضاء رحب بلا أسوار ولا قيود، أكثر من ألف رقم طار في الهواء، ماذا لو سجّلتها في «أجندة» ضخمة كالتي رافقتني في بداية حياتي العملية، وقتها كان زملائي الأكبر سنًا يقولون لنا: «الصحفي يعني أجندة تليفونات»، كبرنا وعرفنا أن الصحفي أشياء كثيرة آخرها أجندة التليفونات، ربما أصبح الصحفي «أكونت» على «فيس بوك»، أو بوست تم «تشييره» مائتي مرة، هكذا يقيسون قيمتنا الآن!

كنت أحتفظ بكراكيبي وأجنداتي وقصاصات مما أكتب في صناديق صغيرة، ضاع نصفها في عمليات «العزال» المتكررة، احتفظت بما بقي في منزل أبي، فانتقل هو الآخر ليضيع ما بقي من ذكريات، فتشت في آخر صندوق فوجدت مجلة «مشروع التخرج» وبعض المذكرات الخاصة، وأجندة تليفونات غير أغلب من فيها أرقامهم، بينما رحل البقية عن عالمنا، في أسفل الصندوق التقطت ألبوم صور يجمعني بأصدقاء الجامعة، كنا أطفالًا كبارًا، خاصة قبل أن يفقد شعري لونه الأسود، أحب شكلي الآن مقارنة بأيام المراهقة، في إحدى الصور من عيد ميلاد أخي ظهرت مرتديًا حزامًا أسود مدججًا بالكباسين الحديدية، وقميصًا مزركشًا بكل ألوان الطيف، أغلقت آخر أزراره عند الياقة، هو بلا شك تأثير عمرو دياب.

أتأمل الصورة، فأدير أغنية «أيامنا»، وأسمع ما كتبه مجدي

النجار، ولّحنه عمرو دياب في زمن كان الاكتشاف والتجديد فيه أمرًا سهلًا، قبلها بعام أعاد عمرو دياب عازف الساكس سمير سرور للأضواء عندما اختطفه من الماضي ليعزف الصولو الشهير في أغنية «حبيبي»، جاء «سمير» من أغنيات العندليب وأم كلثوم ليلوّن كليبات عمرو دياب بالأبيض والأسود، اكتشاف «النوستالجيا» بدأ مبكرًا قبل أن نخترع هذا المصطلح الحديث، أحب عبارة «الحنين للماضي» أكثر، المصري يحنّ للماضي بطبعه، وهذا أمر لا علاقة له بعبارة المصري متدين بطبعه!

(٢)

في صيف ١٩٩٢ وجدت نفسي جالسًا على كرسي الحلاق، وفي يدي غلاف ألبوم «أيامنا»، طلبت منه أن يخترع «سوالف» عمرو دياب حتى وإن لم تنبت بعد، فعلها الحلاق وبدت خفيفة كطيف، بعد أشهر قليلة سار كل شباب مصر وسوالفهم تصل إلى ركبهم، قبل أن يعيد «عمرو» أيضًا موضة البنطلون «الشارلستون» بعدها بسنوات، ونسير حاملين في كعوبنا مكانس يدوية للأرصفة، أحسبها الموضة الوحيدة التي أعجب بها آباؤنا؛ لأننا ذكّرناهم بشبابهم، حنين للماضي أيضًا.

يغني «عمرو»: «اتقال كلام علينا واتقال الشوق نسينا»، كم مرة أحببنا، وحشر الناس أنوفهم في قصصنا ليسألوا، على طريقة «فيروز»: «حبوا بعضن أم تركوا بعضن؟»، فتجد نفسك متورطًا في الردّ على كل الأسئلة بجملة واحدة: «وانت مال أهلك يا أخي»!

لم أحب في مراهقتي، قُل لم أجد من أحبه في مراهقتي، فأحببت كل أغاني عمرو دياب التي ترسم لي صورة جاهزة لحبيب قوي يتمرد على الوضع الحالي، أو «مش هيضعف تاني قصادها ويبص وراه».

في ألبوم «أيامنا» عاد عمرو دياب للتعاون مع حميد الشاعري بعد فترة توقف قصيرة فرضها قرار نقابة الموسيقيين بإيقاف الأخير عن العمل، كان حسام حسني الاختيار الأقرب إلى روح «حميد» في ألبوم «حبيبي»، وأغاني فيلم «آيس كريم في جليم»، ولكن صاحب ظاهرة «موسيقى الجيل» عاد ليصنع مزيجًا من الروح الشرقية والتكنولوجيا التي تفرّد بها وقتها، يقول البعض إن بصمة «حميد» كانت مختبئة في توزيعات حسام حسني، وتطرف البعض، ونسبها لـ«حميد» الذي قال في حوار لمجلة «أخبار النجوم» سنة ١٩٩٥م إنه كان يوزّع بعض الأغاني، ويضع أسماء زملاء آخرين عليها؛ لكي «يأكل عيش» في فترة الإيقاف!

تصريح رسّخ للفكرة التي أكّدها حسام حسني فيما بعد، عندما توارى تمامًا كموزع مع نهاية التسعينيات، ولكن الحقيقة الأهم أن كثيرين ظهروا فيما بعدُ ليقلّدوا عمرو دياب وحميد الشاعري، تحوّل «الساكس فون» لتيمة في أغلب أغاني المطربين، وفكّر الجميع في تصوير الكليبات بتقنية السينما، بعدما قدم عمرو دياب مدير التصوير الرائع طارق التلمساني كمخرج لأغنية «الماضي».

بنفس المنطق وقبلها بعامين أعاد اكتشاف خيري بشارة كمخرج لفيلم «آيس كريم في جليم»، فتحوّل خيري بعده

إلى مخرج لأهم مجموعة من الأفلام الغنائية الشبابية في مرحلة التسعينيات، شخصية «سيف» الشاب الباحث عن حلم الغناء بجاكت جلد وبنطلون جينز وموتوسيكل تحول لفتى أحلام المراهقات وقتها، وهدف لكل شاب يكتب أحلامه على أيام ضبابية لا يعرف فيها الوطن مستقبلًا واضحًا، في نفس الفيلم قدم مدحت العدل كمؤلف، تحديدًا ككاتب للحوار، ليكتب بعدها «العدل» سلسلة أفلام ناجحة منها «أمريكا شيكا بيكا» مثلًا.

يبدو «دياب» في مسيرته كواهرجي شاطر، يكتشف جوهرة أو قطعة ذهب ثمينة يعيد لها البريق، وينقش عليها ختمه، ثم يبيعها لك لتبقى ضمن مقتنياتك النادرة للأبد، هل تتذكر العبارة إياها «قليل من الأشياء الجميلة وُجدت لتبقى»؟

هي كذلك أغاني «عمرو» التي صنعها في تلك الحقبة، تحوّلت بالوقت إلى نبيذ معتق كلما مرت عليه السنوات زادت نكهته قوة، وامتدّ مفعول الرشفة منه، أغنية قديمة يلقيها «عمرو» في إحدى حفلاته دليل عملي على هذه النظرية.

في شتاء ٢٠١٢ وقفت في الصفوف الأولى لحفل أحياه بالجامعة الأمريكية، قبل الحفل بساعات سأل «دياب» جمهوره عبر السوشيال ميديا: «ماذا تريدون أن تسمعوا اليوم»؟

فوجئ بقائمة طويلة أغلبها أغانٍ قديمة، غنى ليلتها ساعة كاملة ضمّت أكثر أغاني بدأت بـ«متخافيش» و«شوقنا» وامتدت حتى «نور العين»، رقص شباب لم تتجاوز أعمارهم السابعة عشرة، رددوا الأغاني التي نجحت قبل أن يولدوا، أما هو فداعبهم مع كل أغنية قائلًا: «دي نزلت قبل ما تتولدوا يا ابني انت وهو!».

(٣)

ترددت كثيرًا وأنا أكتب عن عمرو دياب، لا لشيء سوى أن صوته شريك رحلة الواحد منذ عتبات المراهقة حتى منتصف الثلاثينات، كم مرة حلقت شعرك مثله؟ كم مرة ارتديت نفس الحذاء، القميص، البنطلون؟ بالتأكيد تحتفظ في دولابك ببلوفر «تملي معاك»، أو كاب «أنا عايش ومش عايش»، أتلفت شعري مرة عندما قمت بفرده بـ«الجلات» كي أقلد تسريحته في كليب «نور العين»، أذكر جيدًا ما كتبته الصحافة عن ثمن «قَصة عمرو دياب»، أحدهم «شطح» به الخيال فقال إن عمرو زرع شعره في لندن مثلما فعل العندليب، حتى خرج «دياب» في حوار بمجلة «الشباب» كان عنوانه «تسريحة شعري ثمنها ١٥ جنيهًا»، وقتها كان المطرب المصري الذي لقبوه بالعالمي –قبل أن ينتقل اللقب لـ«ميدو»– قصة رئيسية في صحف النميمة ومجلات الفن، حصل عمرو دياب على «الميوزيك أوورد» للمرة الأولى، ما زلت أتذكر السهرة التي أعدّها التليفزيون المصري لعرض حفل الجوائز في حضور «عمرو» والموسيقار عمار الشريعي ومعهما «يسرا» والمذيع إبراهيم الكرداني، ظلّ «الشريعي» يلقي قصائد مدح في موهبة وذكاء واجتهاد «عمرو»، أظن أنها كانت سعادة حقيقية بانتصار حققه مطرب تحوّل إلى قدوة لملايين المراهقين والشباب، الحقيقة أن عمرو دياب فعلًا هو آخر مطرب مؤثر في شخصية جيل، مهما حاول البعض بعده إلا أنها كانت محاولات مفتعلة ومؤقتة لم تستمر طويلًا، هو يملك الذكاء الذي جعله يلتقط مطلعًا يدندنه شقيقه «عماد» وهو

يقول: «حبيبي حبيبي يا نور العين»، فسأله: «سمعت اللحن ده فين»؟ فقال: «عند ناصر المزداوي».

لم يكن شقيق «عمرو» قريبًا من دائرته الفنية، وهو ذكاء يحسب لـ«عمرو» عندما أبعد كل المؤثرات العاطفية عن طريقه، يحكي لي ملحّن قدم عشرات الألحان لـ«دياب» في تلك المرحلة: شقيق «عمرو» لم يقترب من ذوقه الفني، ولا إدارة أعماله، ولا حتى علاقاته بالمحيطين به، ولكن «عمرو» لم يخجل من الإعلان في لقاء بقناة «النيل للمنوعات» بعد فوزه بالجائزة أن «عماد» شقيقه كان سببًا في انتباهه للحن الأغنية التي كتب كلماتها أحمد شتا، ووزّعها ناصر المزداوي.

بعد نجاح «نور العين» هاجمت الصحافة عمرو دياب في ألبوم «عودوني»، الأغنية التي مثلت حالة موسيقية عجيبة وقتها، لم يكن للألبوم «هيد» قوي مثل «نور العين» وعادة بعد النجاحات المدوية يجب عليك أن تنتظر اللطمات وتتقبلها بهدوء، هكذا توقع «عمرو» ما تخبئه له الصحافة في «عودوني»، غاب «عمرو» قبلها لمدة عامين؛ بحثًا عن استثمار لـ«نور العين»، فقدّم نسخة إنجليزية «عجيبة» للأغنية، غنّاها بلهجة ركيكة، وصدر ألبوم يضم توزيعات متنوعة لـ«نور العين» بنسخ موسيقية مختلفة ما بين «الديسكو» و«الجاز»، ولكن التجربة كانت باهتة بلا معنى، يحكي عبد المنعم طه كاتب أغنية «عودوني» شيئًا من الكواليس قائلًا: سمعني عمرو طنطاوي اللحن، فعجزت عن كتابة أي شيء عليه، الجملة الموسيقية التي رددنا عليها فيما بعد: «عودوني عودوني عليك أحبك عودوني»، لم أجد ما أكتبه عليها، قلت لعمرو

طنطاوي: لا توجد كلمة مناسبة لها، فأشار إلى علبة السجائر وقال لي: مارلبورو مارلبورو، أهي كلمة ونفعت أهي!».

سمعت القصة، وتخيلت «عمرو» موديل لإعلانات ماركة السجائر الشهيرة، وهو يغني: «مارلبورو.. مارلبورو.. عليك أحبك»، ولكنني لا أعرف لماذا قالوا في الأغنية «عليك أحبك» وليس «عينيك أحبك»، رغم أن التعبير الثاني أكثر منطقية ورمانسية؟

للقصة بقية:

ترقص طفلتي الصغيرة ذات السنوات الأربع على أغنية «شوقنا»، تذكرني بـ«بلية» في فيلم «العفاريت»، تزيد دهشتي أمام أغنيات عمرو دياب، هل اختارها وهو متأكد أنها ستعيش كل هذا الزمن؟

الصدفة وحدها كانت بطلًا لهذه الأغنية تحديدًا، حكى لي الموسيقار خليل مصطفى أن اللحن كان معدًا لمطرب شاب من الشرقية، على مائدة غداء في منزل عائلة المطرب تم تلحين الأغنية، واتفقا أن يضمّها المطرب إلى ألبومه الذي سينتجه على نفقته، ولكن كلمات الأغنية كانت عن الإسكندرية.

يجاهد خليل مصطفى ليتذكر الكلمات قائلًا: كان مطلعها يقول «اسكندرية يا محلاها، شط وجمال وهواها، حاجة زي كده تقريبًا، لكن في الحقيقة اللحن كان جيدًا، وكنت مترددًا أن يضيع في تجربة عادية، ولم أكتب تنازلًا عن اللحن، ولم أتقاضَ أجرًا، وكان من حقي منح اللحن لأي مطرب».

مساءً التقى «خليل» بعمرو دياب في فندق شيراتون القاهرة، كان «عمرو» يقدم «نمرة» ثابتة بالفندق في فترة كان فيها «أهم نمرة» في فنادق الخمس نجوم، وهي مرحلة تلت نجاحاته الساحقة في كباريهات شارع الهرم.

سأل «عمرو» «خليل» عن آخر ما لديه، فعرض عليه اللحن، في التوّ واللحظة قرر «عمرو» شراء الأغنية، وكتب التنازلات في غرفة بالفندق كانت محجوزة له للراحة وتغيير ملابسه، وأحيانًا للمبيت فيها، وكتب العبقري رضا أمين كلماتها، احتوت الأغنية على صورة في كل شطر منها خاصة: «واياك تفكر بحر الشوق مهما علي هيغرقنا»، التشبيه بين الحب والبحر وبين المحبة والغرق فيه، صورة تميز كلمات شاعر بسيط، ولكنه نافذ للقلب دائمًا، هكذا هي أنجح أغنيات عمرو دياب، سهلة بسيطة تمر وتستمر وتبقى مثل قليل من الأشياء الجميلة.

«أيامنا»
غناء: عمرو دياب
ألحان: عمرو دياب
توزيع: حميد الشاعري
إنتاج: صوت الدلتا